الاغتراب في كتاب (المملكة السّوداء) لمحمد خضير

طالبة الدكتوراه شهناز ساكي
جامعة آزاد الاسلامية ـ فرع آبادان ـ قسم اللغة العربية وآدابها □ إيران
الدكتورة سهاد جادري (الكاتب المسؤول)
أستاذة مساعدة ـ جامعة آزاد الاسلامية ـ فرع آبادان ـ قسم اللغة العربية وآدابها ـ إيران
sohadjaderi@yahoo.com

Alienation in the book "The Black Kingdom" of Muhammad Khudair□

□

Shahnaz saki

PhD student Islamic azad University abadan - Branch of Arabic Language and Literature - Iran

Dr.sohadjaderi (responsible writer)

Islamic Republic of Iran Azad Islamic University - Abadan Branch - Department of Arabic Language and Literature-iran

□

الملخص:-

كتاب ((المملكة السّوداء)) للكاتب والقاص العراقي المعاصر "محمد خضير" يتألف من ثلاث عشرة قصة وقد دُوّن بين (١٩٦٩-١٩٧٢) يعتبر هذا الكتاب من أرقي الكتب القصصية العراقية من حيث السّرد القصصي وانعكاس واقع الحرمان والضّياع في المجتمع العراقي. تتمحور المجموعة القصصية في هذا الكتاب علي بيان الاكتئاب والافلاس والاغتراب النّفسي والاجتماعي. حاولنا في هذا البحث الكشف عن ظاهرة الاغتراب الكامن في طيات سطور القصص الواردة في الكتاب والمتبلورة في التّفرد والغربة النّفسية والعزلة لدي الشّخصيات الرّمزية والحقيقية. من بعد البحث والتّحري في المجموعة القصصية وجدنا أنه كثير من شخصيات القصص تعاني من الاغتراب والحنين إلى الماضي، فلهذا اختاروا العزلة والتّفرد ولها دواعي عديدة ذكرنا في معالجتنا لكل قصة.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، المملكة السّوداء، القصة، محمد خضير.

Abstract:-

The book "The Black Kingdom" of the contemporary Iraqi writer and storyteller "Muhammad Khodeir" is composed of thirteen stories and has been written between(1969-1972). In this book, the anecdotal set focuses on depression, bankruptcy, and psychological and social alienation. In this research, we have tried to uncover the phenomenon of latent alienation in the folds of the lines of the stories contained in the book, which are crystallized in the uniqueness, psychological alienation, and isolation of symbolic and real personalities. After researching and investigating the anecdotal group, we found that many of the characters of the stories suffer from alienation and nostalgia for the past, so they chose isolation and exclusivity and they have many reasons mentioned in our treatment of each story.

Key words: alienation, black kingdom, story, Muhammad Khudair.

أ ـ المقدمة

كتاب ((المملكة السّوداء)) يتكون من ثلاث عشرة قصة قصيرة في قسمين؛ القسم الأول: ((المئذنة، أمنية القرد، نافذة علي السّاحل، الشّفيع، شجرة الأسماء، المملكة السّوداء، الأسماك، والقسم الثّاني: حكايات الموقد، تقاسيم علي وتر الرّبابة، الأرجوحة، القطارات الليلية، التّابوت. وهي قصص قصيرة فحواها الحرمان والأمنيات الغير متحققة والانتظار والغربة والتّألم والضّياع. حاولنا من خلالها هذا البحث والتّحري، الكشف عن ظاهرة الاغتراب النّفسي والاجتماعي في شخصيات القصص المتنوعة.

ب: المدخل

عندما نطالع كتاب "المملكة السّوداء" نجد الضّياع والغربة والحنين إلى الماضي هي الطّابع الأكثر تجلياً في تعامل الشّخصيات في القصص المذكورة وقد ظهرت هذه الظاهرة في نفسية الشّخصيات أو في أقوالهم وتعايشهم و ذلك في أجناس من المجتمع العراقي من نساء وفتيات و رجال و جنود أيام الحرب.

شخصيات عديدة في القصص المذكورة كانت تعاني من الغربة وآلام الحياة و كذلك الضّياع منها نساء محرومات وجنود مهملين وفتيات و أسر ينتظرن العشير. كذلك مظاهر الحزن والقلق وفقدان التّوازن العاطفي والنّفسي، هي تجليات مختلفة للشعور الاغتراب في لدي شخصيات القصص. فنجد في كل قصة شخصيات تعاني من كلّ أنواع الضّياع والغربة، فتفقد حينئذٍ شعورها ويصبح كل واحد من هذه الشّخصيات المتفردة عاجزاً عن التّواصل مع المجتمع ومع ذاته المنسية.

ج: اهداف البحث

١ ـ دراسة ظاهرة الاغتراب في كتاب "المملكة السّوداء" لمحمد خضير

٢ ـ الكشف عن دواعي الشّعور الاغترابي لدي شخصيات المجموعة القصصية.

د: أسئلة البحث

١- كيف عالج القاص ظاهرة الاغتراب في كتابه ((المملكة السّوداء" في سرده للقص))؟

٢- ماهي أهمُّ دواعي الشّعور الاغترابي لدي شخصيات المجموعة القصصية في كـتاب ((المملكة السّوداء))؟

هـ: فرضيات البحث

١- عالج القاص ظاهرة الاغتراب في كتابه ((المملكة السّوداء" بذكر نماذج حقيقية ـمن المجتمع وهي بعض النّساء و الأيامي والفتيات وبعض الرّجال المحرومين و الجـنود المجهولين في الحروب؟

٢- من أهمُّ دواعي الشّعور الاغترابي لدي شخصيات المجموعة القصـ ـصية في كـتاب "المملكة السّوداء" هي الإفلاس، والحرمان و الضّياع والانتظار.

و: منهج البحث

المقالة هذه تعتمد في خطّتها الدراسية علي المنهج الوصفي- التّحليلي وتبيين ظاهرة الاغتراب ومن ثمّ تطبيقها علي نماذج قصصيه، فهي تكـ ـشف ـعن أبـ ـعاد ـهذه الـ ـظاهرة الاغترابية من خلال دراسة القصص وتصل إلى نتائج تساعد علي معرفة جذور شخـ ـصية الكاتب وخباياه الذّهنية التّي انعكستْ في قصصه.

ز: الدراسات السّابقة

من خلال البحث والتّحري لم نعثر علي موضوع كهذا يـ ـعالج ـمن خلا ـله ـظاهرة الاغتراب في هذه المجموعة القصصية ولكن هناك موضوعات مشابه عولج فيـ ـها الأ ـسلوب القصصي لمحمد خضير وهي: السّرد التّشكيلي في ((المملكة السّوداء)) لمحمد خضير (٢٠١٦) لحمد شاكر وأيضاً دراسة تطبيقية رحلة الطّائر العجـ ـيب، اللـ ـغة والا ـسلوب في الممل ـكة السّوداء، لباقر جاسم، محمد.

١ـ الاغتراب لغة

جاء في لسان العرب: اغترَبَ الرّجل: نَكح في الغرائب وتزوّج إلى ـغير أقارـ ـبه، وفي الحديث: اغتربوا لا تضووا أي لا يتزوّج الرّجل القرابة القريبةَ فيـ ـجيء وـ ـلده ـضاوياً أي ضعيفاً دقيق العظم هزيلاً، والاغتراب افتعالٌ من الغربة؛ أرادَ تزوّجوا إلى الغرا ـئب ـمن النّساء غير الأقارب، فإنّه أنجب للأولاد (ابن منظور، ٢٠٠٣: ١، ٢٤).

فالاغتراب لغةً مشتق من (غَرُبَ، يغرُبُ) ويعني غاب واختفي وتواري وتمادي وتنحّي وبعُد عن وطنه؛ أمّا (اغترب، يغترب) فتعني: أحسّ بالغربة ونزَحَ عن وطنه؛ فالاغتراب مصدرٌ لفعل (اغترب) أي انتاب الفرد شعورٌ بالاغتراب برغم وجوده في بلده؛ وفقدُ الإنسان ذاتَه وشخصيته ممّا قد يدفعه إلى الثّورة لكي يستعيد كيانه. وبمعني آخر، هو((تعبيرٌ عن التّوتر والقلق النّفسي، وضياع الذّات أو استشعار الخوف من فقدان الأمن والأمان، والفرح والسّعادة، والتّواصل مع الجوهر الطّبيعي...)) (جمعة، ٢٠١١: ٢٤)، وبذلك ((يتداخل المعني اللغوي والاصطلاحي ليعطي مفهوماً واحداً هو الابتعاد عن النّاس بالجسم أو بالفكر)) (الرّكابي، ١٤٣٠: ٨٥).

فإذن إنّ ظاهرة الغربة ((تستأصل الإنسان من كلّ ما يربطه بالحياة والحيز الإنساني، وتحرّك في عوالمه الباطنية أنغام الحزن والشّقاوة، ولكنّها تتحوّل في الأعمال الشّعرية إلى زفرات الحزن، وصرخة في وجه الحياة الجائرة البائسة، وانتظار للفرج والخلاص)) (دحماني، ٢٠٠٥-٢٠٠٦: ٥١)

نظراً لتعدّد معاني ودلالات الاغتراب، حاول الباحثون وضع بعض الدلالات لهذا المفهوم نستخلصها فيما يلي (الصّافي، ٢٠٠٥: ٥).

١- العجز[١]: إنّ الفرد يشعر بأنّ مصيره ليست تحت سيطرته وإنّما يتقرّر بواسطة عوامل خارجية كالقَدَر، أو الحظّ، أو نظام المؤسّسات المتبعة في المجتمع الذّي يعيش فيه ذلك الفرد.

٢- فقدان العبثية[٢] هو إحساس الفرد بالضّعف في الإدراك أو فقدان الهدف في الحياة، من مثل: عدم فهم شؤون العالم أو العلاقات الإنسانية المتداخلة أو إحساسه بعدم جدوي الغرض في هذه الحياة.

٣- فقدان المعايير[٣] هو الشّعور بالنّقص في الإسهام في العوامل الاجتماعية المحدّدة للسلوك البشري، لذلك يحدث انحراف واسع وعدم الثّقة والتّنافر الفردي غير المحدّد وما أشبه ذلك.

٤- التّنافر الثّقافي[٤] هو الإحساس بالانفصال عن القيم التّي تحكم المجتمع والعادات والتّقاليد الاجتماعية السّائدة.

٥- العزلة الاجتماعية[٥] وهي إحساس الفرد بالوحدة والشّعور بالعزلة والانفصال عن العلاقات الاجتماعية.

٦- الاغتراب الذّاتي[٦] (ويعدّ من أصعب الأنواع السّابقة وفيه يشعر الفرد بأنّه خارج عن سيطرة نفسه أو أنّه بعيدٌ عن ذاته.

فنتائج السّلوكية التّي يسفر عنها الاغتراب تتراوح بين: ١. الانسحاب أو العزلة. ٢. الخضوع أو الاستسلام. ٣- الثّورة أو التّمرّد في سبيل تغيير الواقع (بركات، ٢٠٠٦: ٥٩).

الاغتراب نوعٌ من الاضطراب في علاقة الفرد بنفسه والعالم، حيث يشعر المرء بأنّه غريبٌ عن ذاته منفصلٌ عن واقعه بسبب فقدان المعني المتمثّل بصورة أساسية في. الهدف (يوسف، ٢٠٠٥ م: ١٤) وملخّص القول أنّ الاغتراب هوما يعانيه الفرد من الانفصال عن وجوده الإنساني وعن مجتمعه وأفعاله التّي تصدر عنه، فيفقد سيطرته عليها فلا يشعر بأنّه مركز لعالمه ومتحكم في تصرّفاته. فهومن((العوامل المهمّة المسؤولة عن أزمة الإنسان في العصر الحديث حيث يصبح منفصلاً عن مجتمعه الذّي يعيش في. إطاره وحتّي يغترب عن نفسه وأفعاله (خليفة، ٢٠٠٣م: ١٠٣)

٢ـ الاغتراب في كتاب "المملكة السّوداء"

عالج القاص المعاصر العراقي في كتابه "المملكة السّوداء" أنواع المآسي و الآلام الرّوحية و النّفسية و الاكتئاب و الإفلاس و كذلك الضّياع في قصصه المتنوعة في هذا الكتاب و قد انتقي هذا القاص أنواع الشّخصيات المصابة بالإفلاس و الحرمان و الضّياع و هي شخصيات منكوبة تعاني من أنواع الاغتراب النّفسي و الاجتماعي. ففي قصة المأذنة هناك زوجة تعاني من فقدان الزّوج و تبحث عن ابنتها المتروكة و تتفقد بيتها القديم. و في قصة أمنية القرد نجد الفتاة تحن إلى العشير المناسب من خلال التّمعن في حركات القرد و في قصة نافذة علي السّاحل نجد الاغتراب لدي خالة عليّ يسيطر عليها و علي مخيلتها حيث لا دراية لها عن مسير زوجها التّاجر المتجول. و في قصة الشّفيع هنالك امرأة حبلي تتمني أن يكون لها زوج يتكفل حياتها كما تري في شخصية الشّفيع، و كذلك شجرة الأسماء حيث نجد الاغتراب في شخصية الصّبي الذّي ترك المدرسة و

ألقي كنبه في النّهر بعد تعرفه علي صبية خرجت من النّهر وقد علمته لغة السّلاحف و في قصة المملكة السّوداء، و أيضا في قصة الأسماك، و قصة حكايات الموقد يظهر الاغتراب من خلال الاستئناس بالقصص القديمة و التّلهف إلى الماضي والانتظار لغائب يرجع من جبهات القتال و قد طالتّ غيبته، و في تقاسيم على وتر الرّبابة ظهر الاغتراب في فقدان الزّوج و الغربة وتمني البديل، و في قصة الأرجوحة يوجد الاغتراب عند بنت المقـتول حيث لا أباً لها يلاعبها في الأرجوحة، وفي القطارات الليلية تظهر ظاهرة الا غتراب في التّفرد و الابتعاد عن النّاس، والقصة التّي تدور حول الضّياع و الفقدان و التّـيه هي قصة التّابوت.

١ـ٢ـ الاغتراب في قصة المئذنة

قصة المئذنة هي أوّل قصة في كتاب المملكة السّوداء و هي تُروي لـنا أن هنا لـك ا مرأة متزوجة تذهب إلى بيتها السّابق ((عشها المحرم)) حتى تزور بنتها المتروكة الصّغيرة التّي تـقول عنها: ((ليست ابنتي تماماً)) نجد من خلال دراستنا لهذه القصة أن الـقاص يـ صوغ عبارا تـه بطريقة غريبة فالقصد المعلن الظاهر هو وصف حالة الرّخاء النّفسي و الوفاء العاطفي ا لـذّي ترفل به هذه المرأة و هي تتمدد في سرداب بيت الزّوجية الطّاهر (حسن٢٠٠١: ١٢).

بدأت هذه القصة بوصف المرأة المغتربة بما يلي:

((كما لو كانت في قعر إبريق، وجدت أن عتمة السّرداب قد تخـثرت بـاردة لذ يـذة حولها، وأن المروحة ما زالتّ تدور فوق صندوق الشّاي الـفارغ، والـ سّقف قـد ضاع، وابتعدت الجدران عنها، بينما أنبأها خدر عينيها المفتوحتين كمحارتين طريتين أنها ملـقاة في برية تنتمي لعصر سحيق))

اشارة القاص إلى المرأة التّي تسكن في سرداب يشبه الزّنزانة ليس لها سوى فتحة تتصل من خلالها بالعالم الخارجي الذّي لا ترى منه سوى اقدام المارة، وفي هذا الا طار تـبرز فاعلية الاشارة حول وجود المرأة في السّرداب، أي هنا اذن تدليل اشاري حول سكن المرأة في مكان معزول.

فهذه المرأة كانت تعيش في اغتراب نفسي شديد حيث فقدت العشير:

((إلى جانبها كان مكان زوجها فارغاً وكانت وسادتاه الرّيش التّي تحتل جزء من البساط تستكين كقلب أبيض ترك ليشاركها قيلولتها واغتسالها في عتمة البرودة: متو حدة، مقذوفة خلف الأسيجة البشرية؛ وفي الأعلى حين تمر بها الأقدام دون انقطاع فكأنها تسمع ترجيع نبض الوسادة ـ القلب يشدها لحضور زوجها الخفي (خضير، ٢٠٠٥، ص٨).

تهيش بطلة القصة تحت وطأة صراخ داخلي طاحن بين الولاء لعش الزّوجة المقدس برغم قيوده و رتابة عالمه و ضيقه و بين التّوق الحار إلى عش الخطيئة المحرم بما يتضمنه من انطلاق و تحرر وتهتك (حسن، ٢٠٠١: ١٣).

لقد ساهمت في هذه القصة لرسم الاغتراب و السّرد القصصي عدة شخصيات ورموز توحي إلى الاغتراب منها المئذنة و هي دلالة علي التّقاليد الدينية و فوقها عشق اللقلق المتروك و الخرب، الذّي يصور للقارئ الماضي و كانت ترى تلك المرأة ماضيها من خلال ذهاب اللقلق و رجوعه إلى عشه بينما كانت تعاني من كبت التّقاليد الدينية والعرفية.

٢ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة أمنية قرد

أمنية القرد هي الحكاية الثّانية من هذا الكتاب حيث صور لنا فيها الكاتب الاغتراب النّفسي و الرّوحي لفتاة اسمها مريم تسكن في غرفة مع زميلتها كانتا يعملان في الخياطة و قد كانتا يشاهدان قرد مع صاحبه الغجري حيث كانت تتمني أن يكون لها رفيق حياة تستأنس بها، لكنها لم تجده أو الحبيب الذّي فقدته ليصبح عشيراً لها يرافقها في الحياة.

فقصة "أمنية قرد" تناولت جزئية صغيرة من يوميات فتاتين تعيشان بمفردهما في غرفة صغيرة وتعملان في معمل حكومي للخياطة تعانيان الوحدة والفقر والعزلة الاجتماعية. إنهما غير متزوجتين و تعيشان وحيدتين في غرفة مستأجرة تربض عند رأس سلم حجري اسم إحداهما مريم تجلس بائسة علي الدرجة العلياء و هي في أشد حالات الاكتئاب وفقدان الرّغبة في الأشياء و في جدوي ما يحيط بها (حسن، ٢٠٠١: ٢٥)

تختلف الحالات النّفسية بين الفتاتين فصديقة مريم تقول لها: ((مر مر.. كفي عن الشّكوى، جسدي أنا أيضا يؤلمني ـ ستفجر ماكنة الخياطة دمي يوماً ما)) (خضير، ٢٠٠٥: ٢٦) و هط تري من حقها في يوم تتسلى فيه و تتخفف عن نفسها مشاعر الرّتابة و الملل و هي صف مريم بأنها ((عجوز تصك أسنانها خوفاً)) وهو وصف صحح تماماً و ينطبق بدقة على الوضع النّفسي لمريم.

والقاص يعرض أمامنا دقائق آليات العالم الداخلي الكئيب لبطلة القصة بدراية فيجعلها تسقط مشاعرها الذّاتية القاتمة علي زميلها من خلال حوارات قصيرة ذكية حيث تقول مريم: ((أنت ترتعشين.. هل الحمام بارد؟ فتجيبها صديقتها: كلا إني ساخنة.. الماء ساخن و من المؤكد أن الرّعشة التّي تتحدث عنها مريم هي بسبب الصّقيع الداخلي الذّي يجمد أوصال نفسها الهامدة. (حسن، ٢٠٠١: ٢٧).

٣ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة نافذة على السّاحل

يروي لنا القاص في هذه القصة أن هناك صبي مراهق في الخامسة عشرة من عمره ترسله أمُّه ليبحث عن بيت خالتّه المنسية التّي فارقتهم منذ عشر سنوات لغرض الحصول علي المال منها لحاجتهم الشّديدة بسبب مرض والده الذّي الزّمه الفراش. وفي بيت خالتّه لم يكن كل شيء علي ما يرام:

((و في الغرفة التّي كان يجلس فيها وحيداً يقول الصّبي: ((منذ دقائق و أنا أقف عند النّافذة ارتدي ثوباً أبيض واسعاً، ليس ملكي، بل واضحاً أنه يعود لرجل أكبر مني)) (خضير، ٢٠٠٥، ٣٥).

يبدو أن زوج خالة الصّبي سافر بعيداً عن أسرته و لم يأتهم خبر عنه.

((لقد مضي اليوم الثّالثّ علي زيارتي لخالتّي. وما زلت أتذكر كلمات أمّي: ((لقد مضت عشر سنوات من دون أن أعرف شيئاً عن أختي وزوجها، ولا أدري ما إذا كانا يسكنان منزلهما ولم يغيراه ولكنك إذا وصلت محلتهما وسالتّ هناك فستجدهما حتماً. هل تتذكرك؟ لا أدري فحين افترقنا كان عمرك خمس سنوات. قل لأختي...)).

نرى من خلال العبارات تلميحاً غير مباشر لمحاولة أداء دور الرّجل الغائب ـفزوج خالتّه كان قد تركها و سافر بحثاً عن العمل و المال و لم يرسل لها أط رسالة خلال مدة غيابه الطّويلة ((ما زال صوت أمي يسكن رأسي، مرتعشاً واهناً، ولقد عثرتُ علي بيت خالتّي، ولكني لم أجد كل شيء علي ما يرام. منذ ثلاثة أيام، وأنا أشم رائحة الـ طّين حولي في الغرفة الصّغيرة التّي تطل نافذتها عل ساحة داخلية شبه دائرية تحدها بـيوت ذات أسطح وأسيجة من الخشب أو الصّفيح. لا شيء غير رائحة الـ طّين)) (خـ ضير، ٢٠٠٥، ٣٥).

هذه الوحدة والحاجة للآخر نجدها تتكرر في القصة وهي امرأة تنتظر زوج ـها الـذّي هجرها منذ سنوات، هذه الحاجة الكبيرة له ولدت لديها حالة من الهذيان الفكري، جعلتها تقص حكايات غرائبية على الآخرين، عن ثور تزوج من امرأة أرملة، وعن خيول تهاجمها وتطرق علبها الأبواب ليلا.. انتظار غارق بحاجة جنسية لامرأة وحيدة.

((ولكني اسمع من يطرق علي الخشب في آخر الليل.. المرأة لا تقدر أن تبقى لوحدها طويلا)) (خضير، ٢٠٠٥،).

حاول القاص محمد خضير في قصة "نافذة على السّاحة" أن يسلط الضّوء على جدلـية (الانتظار) ببعديها النّفسي والسّلوكي على الإنسان.

٤ـ٢ـ الاغتراب في قصة الشّفـيع

يرسم لنا القاص في هذه القصة إمرأة حبلي تسكن في شقة مع بعض النّساء و ـليس لها من يتكفل معيشتها و عندما تسمع موكب العزاء في أيام العشرة من محرم تر غب أن تنزل من الأعلى لتشاهد المساهمين في تلك المراسيم لقصد الشّفاعة. عندئذ تشاهد الـ فتي الذّي يحمل السّفينة في موكب العزا و تتمني أن يكون لها كفيل كهذا الفتي أو تستشفع بها لمحو الآثام.

في قصة (الشّفيع)، تنزل إليه المرأة التّي كانت قبلئذ تراقب، من سطح بيتها، موا كب العزاء الكربلائية مشحونة بسحر الموكب، وبقوة ذلك الرّجل الحامل سفينة رمزية (ط قس معين يزاوله بعض اللاطمين إبان موكب العزاء الحسينية) يطوف بـ ها في و سط المو كب

الضّاج بأصوات الطّبول، الصّنوج، حشود مرددي الأشعار، اللطم والبكاء على مقتل الإمام الحسين عليه السلام.

تتمنى لو يستمر الرّجل حاملاً ثقل السّفينة، حاملاً عبئها، عبء حياتها، إن هو إلا إفراغ روحي له دلالاته الجنسية المعبّرة في واقع يحكمه الكبت والتّابو في قصة (الشّفيع) يكون للانتظار طعم آخر، مزيج متجانس من الأمل والمعانات ولحظات هيام روحية، تنصهر في بوتقة الانتظار، عبر مشهد بانورامي يصور تلاقح جميل بين مراسيم الاحتفاء الحسيني ولحظات انتظار الولادة، لامرأة حبلى تنتظر مولودها الجديد، وفتاة صغير تجلس بقربها تحاول تدوين المراثي الحسينية التّي تسمعها، صورة رمزية كبيرة للتفاعل الحسي والايدلوجي في لحظة الولادة التّي تمثل حلقة مفصلية بين عالمين، ونقطة تداخل بين النّهاية والخلاص وبداية مشوار جديد في الحياة، يقف بجانب هذا المشهد فتاة تحاول تاصيل هذا المعنى الوجداني واستمراريته، كانت سينوغرافية المكان (الدهاليز، السّلالم المظلمة، البالحات المعتمة) تنسجم مع مظاهر الحزن التّي تغلفه، لحظة الانتظار التّي هيمنت على المشهد العام للنص، رافقها واقع بديل سار بموازاته، رؤى لامرأة تنتظر مولودها تعيش لحظة هيام دينية حزينة وتشبث بعالم آخر تؤمن بأنه سيوصلها إلى ما تريد، حين تستحضر برؤية غرائبية واقعة الطّف في كربلاء.

٥ـ٢ـ شجرة الأسماء

تتمحور هذا القصة علي صبي في المدرسة يقف علي السّاحل ممسكاً بدفاتره المدرسية ويراقب أطراف الموجة الطّويلة وهي تدخل تجاويف الصّخور و يتعرف علي صبية بحرية أتت من الأعماق المائية، تتقدم علي ساحل الماء الجزر(حسن، ٢٠٠١: ٩١). فيترك الدرس والمدرسة ويتعلم من تلك الصّبية لغة السّلاحف فيقذف كتبه و دفاتره في النّهر. فترج تلك الصّبية من الماء و تأخذ تلك الكتب.

((في وسط النّهر، خلف سفن البحارة المتجاورة قرب ساحل الصّخور، يتماوج غطاء كغيمة خضراء في سماء مدينة سفلي تحت الماء)) (خضير، ٢٠٠٥، ص٦٧).

وتتمايل مع سطح الماء، وتتمايل مع سطح الماء النّوارس كما لونقشت عليه. كان محيط السّماء الأسفل أبيض تتلوه رزقة ضبابية، وكانت صواري السّفن تملأ الأفق و ـقد ار تخت بكرات حبالها فكأنها تدلت من قطع الغيوم العالية، وعبرت النّهر (فلكة) تسحب (دو ـبة) ضخمة وكان الماء تحتها أشد دكنة وكذلك تحت سفن الب حارة القريـبة و تحت الـقوارب المشدودة إليها.

بعد الحوار و التّعاطف بين الصّبي و تلك الصّبية تحاول الصّبية البحرية أن تعلم الصّبي لغة السّلاحف برسم بعض الأشكال و الصّور علي الرّمال:

٦ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة المملكة السّوداء

القصة تدور حول شاب اسمه "علي" يبحث عن بيت عمته القديم و يدخل البيت لكي يحصل علي أشياء قديمة مدفونة لأبيه و يبدو أن والد "علي" ترك أسرته و سكن مع أخـته و تزوج امرأة ثانية. فالزّوجة الأولى تعاني من الغربة و هكذا عمة "علي" أي ضا ت عاني من الغربة و الوحدة.

((ذلك الباب الثّقيل بالمسامير العريضة وزخارف المطرقة البرونزية وبالخشب المت صلب الأسود المنحوت الحواف، لم يكن مرتجاً. دخل علي من الباب القديم ا لـذّي ح فرت في خشب إطاره تواريخ هجرية وعبارات الشّكر لله علي فضله في بناء هذا البـيت الـ سّامق ووسط هذه الفوضى اللغوية المثلمة المطموسة بالتّراب ونهش الأنياب التّاريخية قرأ ع لي عبارة: ((أيها الداخل للحوش إقرأ السّلام)).(خضير، ٢٠٠٥، ص٧٥).

فالصّبي الصّغير اسمه (علي)، جاء ليزور عمته المريضة في بيت العائلة القديم، ليسألها عن ارث أبيه، بعد سنوات من موته، كانت جدران المنزل تعج بالأشباح وا لـرّؤى الغريـبة (عناكب، اسماك، عصافير، خيول..) عالم افتراضي يرافقه خلال مسيره من باب البيت إلى غرفة عمته. بعد حوار قصير مع العمة توافق على إعطائه ارث أبيه، ليكتشف انه عبارة عن صندوق صغير لا يحتوي إلا على، مسبحة وقنينة كحل وقلادة رخيصة، لم تكونا لامه بل لزوجة أبيه الثّانية.

٧ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة الأسماك

تظهر لنا ظاهرة الاغتراب النّفسي في قصة الأسماك عند فتاة تشاهد الأسماك في الحوض الزّجاجي في البيت وتنظر من داخل الشّرفة إلى الأسماك في النّهر فهناك أسماك محصورة في أحواضها الزّجاجية كالفتاة المحصورة في حوض الشّرفة كلتاهما أسيرة عالم مظلم قاتل يستلب الوجود الفردي. الأسماك محددة الحركة مقيدة بالطّحالب ونفايات المياه الداكنة القذرة و الفتاة مقيدة في الشّرفة بمرارات عالم مظلم ليس أمام جسدها الطّامح للانعتاق و التّحرر سوي العودة إلى فردوسها القديم رحم الأم ممثلاً بالماء وحوض الشّرفة الكبير (حسن، ٢٠٠١: ١٢٥).

((أعمق وأعمق، في مياه كالقار، تسبح سمكة واحدة هائلة، عمياء متخبطة، سمكة سوداء ملساء، لها وجه آدمي مألوف كوجه الجسد الغاطس: سمكة الآلام والعبودية والانحطاط الجسدي، المؤيدة في الأعماق المظلمة)) (خضير، ٢٠٠٥: ٨٧).

ترى الفتاة في أسماك الحوض حياتها، وتعاين في النّهر العالم خارج الشّباك، تبصر أطفالاً عراة، بؤساً وموتاً، تتفحص في الحوض الزّجاجي أسماكاً من كل الألوان، وما الحوض الزّجاجي إلا جزء من النّهر، وأسماك الحوض جزء من أسماك النّهر، وهي جزء من أولئك الأطفال، الأطفال العراة، فتكتشف الفتاة عبوديتها في ذلك الكون المخيف ذي الأسماك العجيبة الغريبة، بأفواهها، عيونها أصدافها وأشواك ذيولها، تحيط بها الوحوش كما يحاصرها المكان، بل كما يطوّقها أهلها فتجد جسدها مكبلاً بإطار تلكم الصّورة السّميكة.

٨ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة حكاية الموقد

تتمحور هذه القصة علي الانتظار لأسرة تنتظر عودة الابن الغائب و الزّوج كانوا يسلون أنفسهم ببعض الحكايات التّي ترويها لهم العجوز الجارة لهم. يروي لنا القاص محمد خضير في قصة "حكاية الموقد" ترقب جماعي لأسرة فقيرة تنتظر عودة ابن غائب وزوج غائب، يجلسون حول الموقد في ليلة شتاء باردة، ينصتون لصوت القطارات

العائدة، عسى أن تحمل لهم معها البشرى. كانوا جميعا في انتظار احد.. غريب يطرق، أو غائب يعود لبيته.

((لكل مساء حكاية. حكاية واحدة. في أول المساء ـ عندما تسكت عصافير البرد عـلى سدرة البيت وتكف طيور ((الدراج)) في أحراش الحلفاء خلف البيت عن النّداء الـمنغم - تأتي الجارة المقوسة الظهر التّي تحمل ندبة ((خرامة)) في أرنبة أنفها اليمني وتـتدلي قـصيبة رخوة بيضاء من طرف فوطتها ترتخي بشرة وجهها وقد انمحى حاجبا ها (يـا لجنيـبات الجنوب! أي وجه رقيق بلون التّراب تملك).

يأخذ الانتظار منحى آخر:

((قالتّ الجدة المضطجعة: انه لا يأتي بقطار حمولات /قالتّ الأم: بل يأتي في القـطار السّريع / قالتّ الجارة: ولكنه سيحصل على إجازة في يوم ما)).

((تلت وقوف القطار في المحطة دقائق الانتظار المزيتة الشّاقة (تعتـقد الأم الـصّغيرة أن الجادة الضّيقة الممتدة بين الشّعب الأبري من المحطة للبيت، ذات أجراس من يطأ ها تـقرع منبهة)، كانت تتوهم أن الأجراس تقرع الآن))

وودت لو تقول: جاء لولا عادة السّكوت التّي تعودوا عليها في أثـناء هذا الطّـقس تصورته يأتي، والأجراس ترن، وها هوذا يعبر الجادة وسيستغرق وصوله زمـناً تراجعـياً ينتسب لأرض مفرغة من الهواء

٩ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة تقاسيم على وتر الرّبابة

في قصة تقاسيم على وتر الرّبابة يروي لنا الكاتب أن هنالك امرأةً تنتظر زوجها التّي غيبته عنها ساحات الحروب، ليعود إليها في إحدى ليالي انتظارها المضني؛ لكنه يحـمل في ثناياه جروح جسدية ونفسية افقدته القدرة على فعل أشيائه الجميـلة، الا اقـتراب منـها، وعزفه للرباب:

وهنا نجد حضور القطار كرمز للانتظار والوحدة والتّرقب:

((كان الباب مظلماً لأنه يقع في زاوية جدار. والليل النّائم في الزّقاق يقطر ماء. بعد أن هبط درجات عربة القطار النّازل شاهد خزائن الماء خلال ظلمة المحطة كزهرة حديدية مبللة تحملها أغصان متشابكة سوداء، وكانت السّماء مبللة بالسّودا، تمطر رذاذاً، والحصي يبرق تحت أضواء الأعمدة، والسّكتان الحديدتان لامعتين، كسيفين أثريين. كان الطّريق موحلاً، وكذلك سوق البلدة الرّئيسي، والأبواب مقفلة جميعها على جانبي الزّقاق، وسمع صوت حذائيه بوضوح تام، كأنه أدرك، لأول مرة، أنه يمشي)). (خضير، ٢٠٠٥، ١١٥).

((تذكرت شيئاً. كنتُ أري شخصاً يرتدي ثياباً سوداً يتبع الأطباء في المستشفى.. وكان أحياناً يتوقف عند سريري، لكنه يستمر في تنقله حين يجد عيني مفتوحتين. وكنت أعرفه. كان رسول الموت / نم نم / كان يرتدي أساور في معصميه وحول قدميه فكان يصخب في مشيه.. ومع ذلك فإن لا يستيقظ حين مروره به / نم. نم. نم)) (خضير، ٢٠٠٥: ١١٥)

١٠ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة الارجوحة

في قصة (الأرجوحة) عائلة ريفية تنتظر عودة ابنها من جبهات القتال، الذّي طال انتظاره، ليزورهم عن حين غفلة صديقه، الذّي عجز عن أخبارهم بمقتله..

((علي جادة السّكون المظللة بمراوح السّعف كان فتي حليق الرّأس يتحرك فوق دراجته الخفيفة، كالنّائم بين جدول واطيء مزيد بخيوط تشبه رغوة الصّابون إلى اليسار وجدار واطيء من الطّين المتهدم إلى اليمين)). (خضير، ١٩٧٥، ص ١٢٧).

((وذابت ثانية في الشّمس وعادت تضع راسها على عضد ذراعها الممدودة.. ساكنة الوجه وقد أغمضت عينيها / أرى أبي ها هو يؤرجحني في حضنه ولكنه لا يتكلم كالأخرس.. حلق شعر رأسه مثلك وكأني غريبة عنه فهولا يعرفني ولا يتكلم معي أبدا)) (خضير، ١٩٧٥، ص ١٣٨).

((أنا لا أحبه. وما اسمك؟/ ستار/ كاسم ابن المختار. نحن نلعب خلف المغسل ويريد أن ندخله / مغسل الموتى؟ نعم. أرِني أبي الآن. أراه يخرج من الحقيبة هناك ويأتي نحونا. بلا رأس ولا يدين ولا رجلين ومن دون ثياب. كالدخان /نعم. نعم / دعيه يقترب. تظاهري

بالنّوم ولا تفزعيه لأن لا يحب غير النّيام كالموتى)) (خضير، ١٩٧٥، ص ١٤٠).

بحكم التّقاط القاص اللحظات المنحصرة في عودة جندي من الجبهة متلبس شخصية صديقه الذّي استشهد هناك و ها هو يحمل حقيبته و نبأ وفاته الذّي لم يصرح عنه مباشرة بل يستأنف حضوره و خروجه من الحقيبة باسياب دخاني صامت في غوص في النّهر(السّلمان، ٢٠١٢: ٤).

((هل نمت يا حليمة؟ /خرج من الحقيبة كالدخان ولم يتكلم./ وأين هو الآن؟ /لست أدري. لقد ذهب. غاص في النّهر/ ولم يلبثا هما كذلك، أن غاصا إثره)). (خضير، ١٩٧٥، ص ١٤٠).

يقول الكاتب و الباحث علوان السّمعان في تعليقه لقصة الأرجوحة: كونه سارد رؤيوي يمنح مخيلته التّحليق في عوالم الواقع المرصود بقوة الوجدانية، الذّاتية و الموضوعية ومكتسباته المعرفية وراء عبر الذّات المنتجة و الأخر جمعي (السّلمان، ٢٠١٢: ١)

١١ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة العلامات المؤنسة

تلك هي علامات المدن، أبوابها، أسوارها وطرقها الخارجية الخالية تحت سماء مقفرة، علامات الأبواب والبيوت المهجورة، المخازن، الفنادق وخانات النّوم المنخفضة، علامات المقابر المنعزلة، علامات الجيوش الغازية، علامات كراسي العرش والصّولجانات والأوسمة، علامات الهيكل المقدس الذّي تتعامد قوائمه فوق مكة والقدس وكربلاء وبيت لحم، تلك علامات ساحات المعارك: الدخان وحطام الآليات والأسلحة والخرائب المسودة والجسور، وفردات الأحذية...).

دارت حول حافة حوض التّمثال النّاشف في الماء في الحديقة شاحبة الضّوء، حتى حجبها التّمثال عنه، وسمع صوتها من هناك: أتعرف علامات الحياة المجهولة، العلامات القاتلة؟ قال: لا زالتّ ملاحظات الأستاذ هذا المساء عن الأقوام السّامية غامضة في رأسي / سمعها تقول من هناك، خلف التّمثال: (خضير، ٢٠٠٥: ١٤١).

١٢ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة القطارات الليلية

يظهر الاغتراب في هذه القصة حول التّفرد والفراغ و الانتظار و فقدان العنوان و كذلك التّيه:

((تلفتت المرأة حولها. كانت مساند الكراسي الفارغة تتجاوز مقوسة وتنتهي عند الجدران في أضلاع متموجة قصيرة. قالتّ: لم يحضر أحد غيرنا. هل هو فيلم ممل؟ إنه فيلم من أجلنا نحن الاثنين. ضحكت المرأة في حين أحاط الرّجل كتفها بذراعه. جاءت فترة هدوء مظلمة، انتهت باندفاع قطار صاخب قطع الشّاشة العريضة، توالتّ نوافذه الداكنة من دون أن يبدو خلفها أحد. كان القطار خالياً كذلك. ثم انتقلت اللقطة فتركزت على محاور عجلاته المتحركة بسرعة هائلة. وهنا سمعا صوت معلق الفيلم: ((هذه لحظة النّوم في القطارات الليلية المتحركة خارج المدن، المتنقلة بين المحطات الصّحراوية من دون توقف)).

كان شبح امرأة ذات هالة مغبرة، قرعت يدها إحدى النّوافذ. أطل جندي من مقعده خلف النّافذة إلى أسفل ثم أنزل الزّجاج وسمع صوتاً مكتوماً: هل ستسافر للجبهة؟ لماذا؟ لدي رسالة. لمن؟ لزوجي اسمه علي الرّسالة لكني لا أعرف عنوانه ولست متأكدة من مكان خدمته. قرأ الجندي في ضوء العربة الفاتر الاسم علي مظروف الرّسالة وهتف وسط الضّوضاء/ إني لا أعرفه/ لكنك ستصادفه يوماً في مكان (خضير، ٢٠٠٥: ١٦١).

١٣ ـ ٢ ـ الاغتراب في قصة التّابوت

وفي قصة التّابوت، يصور لنا القاص مأساة الحروب من منظار آخر، عبر رحلة افتراضية لجنازة جندي مجهول الهوية، تتقاذفها المحطات وعربات القطارات، تنتظر من يتعرف عليها، وينتشلها من غربة فقدان الهوية، وقد حملت القصة بعدا رمزيا، حين يقترب صبي صغير من تابوت ذلك الجندي القتيل، ليرفع غطائه دون إذن((قاعة في مكان ما، قاعة في محطة مركزية تصعد إليها أم تنزل منها القطارات، شمالاً وجنوباً. لولا أن القاعة من المنشأت الملحقة بالمحطة، لكانت قاعة لحفظ الجثث في مستشفى من المستشفيات. غير أنها هنا في المحطة، قاعة طويلة، بلا منافذ سوي مدخلها الواسع، طليت جدرانها وسقفها بدهان

أبيض، ليس أبيض تماماً، فثمة بقع غير لامعة صفراء أو رمادية، ضوء المصابيح أعلى الجدرا كافٍ وقوي، فرشت أرضها، الممر من أرضها، بنشارة الخشب، لأن ما تبقي من أرضها، جانبيها شغلا بتلك الصّناديق الكثيرة، الصّناديق المتشابهة في التّصميم والحجم والطّول)) (خضير، ١٩٧٥، ص ١٦٦).

الف: النص: إن جولةً أخيرة، ذهاباً وإياباً في الممر، بعد منتصف اليل بقليل، يتم فيها تفقد وتدقيق التّوابيت قبل تحميلها في العربات الخاصة بنقل التّوابيت إلى الأماكن المؤشرة علي أغطيتها، سيكشف عن أمور عديدة: فالتّوابيت، مثلاً، وردت من جهة واحدة، من خطوط قتال متقدمة، تشير اللطخات والثّلمات التّي عليها إلى أن أذرعاً عديدة قد تناقلتها عبر زوابع وظلام وحرائق وانهيارات، في مناخات ممطرة تسعة، من داخل أغوار أو مرتفعات، وإن كان قد تكرر حملها أو رصفها فقد تكرر فضها وإعادة تثبيت أغطيتها، ربما للتأكد من محتوياتها، أو ربما لأسباب أخرى. (خضير، ١٩٧٥، ص ١٧٠).

ب:النص: ((فذلك التّابوت، في آخر القاعة، يختلف عن صفوف التّوابيت الأخرى، بكثرة العناوين المشطوبة علي غطائه: تم تغيير أسماء المدن عدّة مرات عليه، وشُطبت كلها، ما عدا العنوان الأخير الذّي كان يتألف من كلمة واحدة: ((مجهول))، كما غُيرت مواضع المسامير المثبتة، وظهرت ثقوب المسامير المنزوعة مع محيط الغطاء. تخلف هذا التّابوت، على الأغلب؛ في القاعة لفترة طويلة، أو أعيد إليها بعد طواف طويل؛ غير أنه لا بدَّ أن يرسل، آخر الأمر، إلى جهة ما. وهكذا، فإذا ما فكرت تلك الجهة في إعادته ثانية للقاعة، فسيصار إرساله إلى جهة أخرى غير الجهة السّابقة)).

ج: النص: كما كان التّابوت الذّي ترك علي رصيف المقهى، شديد الوضوح، يحلق في الضّوء ملطخا بالعناوين الحمراء التّي شطبت واستبدلت مرات عديدة (خضير، ١٩٧٥، ص١٧٣).

الاغتراب وفي قصة التّابوت، يصور القاص مأساة الحروب من منظار آخر، عبر رحلة افتراضية لجنازة جندي مجهول الهوية، تتقاذفها المحطات وعربات القطارات، تنتظر من يتعرف عليها، وينتشلها من غربة فقدان الهوية، وقد حملت القصة بعدا رمزيا، حين يقترب صبي صغير من تابوت ذلك الجندي القتيل، ليرفع غطائه دون إذن ويطالعه، ثم يغادر

مسرعا، ليأتي حملة التّابوت ويضعونه في عربة قطار، ويرحل إلى محطة أخرى.. إنها النّهاية والصّيرورة الجديدة، التّي تتكرر في قصص محمد خضير. في قصة التّابوت

نتائج البحث:

بعد التّحري و البحث في قصص كتاب ((المملكة السّوداء)) للـ قاص محـ ـمد خـ ضير الكاتب المعاصر العراقي بغية الكشف عن ظاهرة الاغتراب و بعد تعريف تـ ـلك الـ ظاهرة وصلنا إلى النّتائج التّالية:

عالج محمد خضير الشّخصيات المصابة بالنّكبة و الحرمان و الـ ضّياع و الحر ـمان ـمن خلال قصصه الثّلاث عشرة في كتابه المملكة السّوداء و هي تدل علي الحياة السّوداء.

عالج محمد خضير في كتابه المملكة السّوداء قضية الـ ـمرأة العراقـ ـية، نا ـفذاً إلى صلب همومها، وهواجسها اعتماداً على الوعي السّياسي الطّبقي، كما رأيناه في قصة المئذنة وأمنية القرد ونافذة علي السّاحل والشّفيع فوجدنا الاغترب النّف سي والاجت ـماعي ـمن خلال دراستنا للقصص:

كانت ظاهرة الاغتراب النّفسي في قصة المئذنة تتمحور حول الاغتراب النّفسي و الغربة و التّلهف إلى الماضي و فقدان العشير.

تمحورت ظاهرة الاغتراب في قصة أمنية القرد حول فتاة اسمها مريم تسكن مع زميتلها في شقة و هما يعملان في معمل الخياطة الحكومي فقد أصيبت هذه الفـ ـتاة الـ ـغير متزو جة بالاكتئاب والاغتراب النّفسي بعد ما كانت تشاهد قرد بيد صاحبه الغجري يظ ـهر حر ـكان زوجة السّلطان.

تبدو ظاهرة الاغتراب في قصة نافذة علي السّاحل في الغياب و الحرمان و الابتعاد عن الأسرة والانتظار لعشير غائب.

نجد الاغتراب في قصة القطارات الليلية حيث التّفرد والفراغ وا لخوف ـمن ا لحرب والانتظار والغياب عن الأسرة وعدم الاطلاع عن مسير المقاتلين.

كذلك ظهر لنا من خلال هذه الدراسة الخوف المسيطر علي النّفوس في قصة الأرجوحة والبنت حليمة وكذلك قصة القطارات الليلية وقصة التّابوت كانت هي القصة الوحيدة التّي تعبر عن الموت والقتل والضّياع حيث كان التّابوت المحمول من جبهات القـتال والـ شّطوب علي عنوانها عدة مرات، وكان ينقل من محطة إلى محطة أخرى دو أن يعتني به وأو يكون له عنوان دقيق.

هوامش البحث

(1) Powerlessness.
(2) Meaning lessness.
(3) Norm lessness.
(4) Cultural Estrangement.
(5) Social Isolation.
(6) Self Enstrangement.